

ريتنا عوض



## الجنون في ادب جبران

يصعب ان يعدد الجنون بتعريف يجمع خصائصه المختلفة ويمنع عنه ما يمكن ان يعزى لغيره من صفات قد ترتبط باحوال اخرى من حالات الانقطاع عن التسلسل المنطقي الواعي . وليس الاهتمام بالجنون بدعة اختص بها العصر الحديث ، بل تظهر اهمية الجنون بالحاح في حياة البدائيين ، حيث كان للكهان والاطباء المشعوذين الذين ادعوا القدرة على الاتصال بالقوى الفيبية اهمية خاصة ، وكانوا يسمون بالجانين .

ولعل اهمية الجنون ظهرت في اكثر صورها جلاء في الحضارة اليونانية . ولعل افلاطون كان من افضل من عبر عنها . لكن فكرة الجنون ليست ابتكارا افلاطونيا ، فقد دخلت الى اليونان مع الدين الديونيسي الذي ساد تلك البلاد لمدة قرون قبل زمن افلاطون ، ووجد التعبير الامثل عن نفسه في مسرحية يوربيديس عباد باخوس ( ١ ) ويرجح ان ديوقريط هو اول الفلاسفة الذين شددوا على اهمية هذه الفكرة (٢) ففي تأكيد على دور الصدفة في الحياة والوجود النفسي ديوقريط اهمية المنطق الانساني الذي يتناقض في طبيعته مع المصادفة التي تحد بالمفاجاة اللامنتظية . فيغدو الجنون الغاء لقواعد المنطق .

ويعد افلاطون في كتابه فيدراس الجنون هبة من السماء ويرى انه يرتبط بالالهة . ويعارضه بالمنطق الذي يعده خاصة انسانية . ويقول ان قدماء اليونان ربطوا بين الجنون والنبوة ، الامر الذي يؤكد انهم اعلوا من شأن الجنون (٣)

وضع افلاطون الجنون في مستويات اربعة : ربط بينه وبين التنبؤ بالغييب في المستوى الاول . وعد الطقوس التي تمارس لشفاء الامراض مستوى ثانيا . ووضع الالهام الشعري في المستوى الثالث (٤) ولا يطيل افلاطون الحديث عن هذه المستويات الثلاثة بل يتخذها سبيلا الى بلوغ ذروة هذا التدرج في الجنون الالهي ، فيصل الى المرحلة الرابعة

Euripides , The Bacchae , tr . Philip Vellacott (١)

( Great Britain . 1971 ) .

Plato , Phaedrus , tr . and int . R . Hackforth (٢)

( Indianapolis 1952 ) P . 58 .

Ibid . PP . 56-57 .

Idem (٣)

(٤)

والاخيرة ويسميتها الحب (٥) فيصبح الجنون في اعلى مراتب الجنون هو الحب .

كيف يكون الحب جنونا ؟ يفقدنا هذا السؤال الى طرح سؤال اخر : ما هو الحب الافلاطوني ؟ عرف افلاطون الحب في كتابيه الرئيسيين اللذين عالج فيهما هذا الموضوع - المأثبة والفيديراس بأنه الرغبة في الخلود بالتوق الى الجميل . ووضع الصور التي تتجلى فيها هذه الرغبة في مستويات ثلاثة : حب الجسد الجميل اولا ، وحب القيم الجميلة ثانيا ، وحب الجمال الكلي الخالص من كل شائبة اخيرا . هذه المرحلة الاخيرة هي الحب الافلاطوني . انه عشق لمثال المثل الذي يختصر في ذاته الحق الاعلى والخير الاسمي والجمال الاكمل . وهنا يصبح الحب رمزا عينيا مطلقا للحقيقة الصوفية وهي ثوبان ذات الانسان الصغرى في ماهية الذات الكلية الكبرى . وهل ما يحبه العاشق - كما يقول افلاطون - سوى مرآة يرى فيها نفسه ؟ (٦) فيغدو الجنون انقطاعا تاما عن ارتباطات الانسان الانية في عالم الصيرورة وانجذابا مطلقا الى عالم الكينونة واتحادا كليسا بمثال المثل . ومن هنا كان الجنون الهيا .

لم يرتبط الجنون - من حيث هو انجذاب من عالم الواقع وانقطاع كلي الى عالم ما فوق الواقع المثالي - بالتصوف من حيث هو انحلال الذات الصغرى في ذات كلية كبرى في التراث الاغريقي وحده . ففي التراث الاسلامي العربي والفارسي اصبح مجنون ليلى - الشاعر المنجذب من عالم الحس الى عالم ابنته خياله كانت فيه ليلى مثالا ينقطع الى عبادته - اصبح رمزا للمتصوف الذي يهاجر بروحه الى دنيا الله . ويبلغ حالة مشاهدة للذات الالهية ثم فناء كلي في ذات الله الكبرى . وتغدو ليلى رمزا عينيا مطلقا لله لان الاتحاد الصوفي يتم بالحب وحده . ولعل تأكيد الارتباط الذي لا ينقسم بين الحب والتصوف والجنون في الادبين العربي والفارسي يحمل رواسب افلاطونية دخلت التراث الاسلامي وتلونت بطابعه .

ظل نالوث الحب والتصوف والجنون واحدا في تراث حضارات مختلفة حتى عصرنا الحديث . ولعله وجد التعبير الامثل عن ذاته في الحركة السريالية في الادب والفن التي ظهرت في فرنسا بعد الحرب العالمية الاولى . فقد سعى السرياليون الى بلوغ المطلق من خلال مفهوم

Ibid . P . 92 .

(٥)

Ibid . P . 105 .

(٦)

جديد للتصوف هو الصوفية المادية . واذ أصبحت المرأة في المرتبة الاخيرة من مراتب الرحلة الصوفية بالنسبة للسرياليين ، شهد الطب معادلا للفن الذي اتخذه السرياليون وسيلة لبلوغ المطلق . يقول اندرية برتون - مشرع الحركة السريالية - في بيانه الاول : « اننا نحول الفن الى اكثر صيغة بساطة وهو الحب » (٧) وقد رأى السرياليون - متأثرين بفرويد - ان المجانين ، وهم المنحرفون عن الحقيقة الخارجية ، يعرفون عن الحقيقة الداخلية اكثر مما يعرف العاقلون . وهم يستطيعون ان يكشفوا للمعقلين حقائق لا يمكن النفاذ اليها بدونهم (٨) من هنا رفض السرياليون المنطق والفوا جميع الخصائص الانسانية المطلقة بالتفكير المنطقي ولا سيما الذاكرة من حيث هي الحصيلية المنطقية المنظمة لتجارب الماضي (٩) وقد سعى الشاعر السريالي بتحرره من الذاكرة ، الى اكتساب النبوّة بالتوجه نحو المستقبل اللامحدود الذي تحكمه الصدفة ولا يسيطر عليه المنطق (١٠) يقول برتون في كتابه مقابلات : « ان تخلق حياة تتألف كلياً من مصادفات مروعة كهذه هو ان تحقق عالم ما فوق الواقع . » (١١) وبهذا عاد السرياليون الى فلسفة هرقلط الذي ربما كان اول من اكد اهمية الجنون بين الفلاسفة . وقد اقام السرياليون للجنون اعيادا فاحتفلوا عام ١٩٢٨ باليوبيل الذهبي للهستيريا (١٢)

يتضح مما تقدم ان ثلوث الحب والتصوف والجنون ربما كان نموذجا اصليا مفروسا في اللاوعي الانساني الجماعي ، اذ ظهر في امكنة متعددة عبر فترات زمنية متباينة وظل يحمل دلالات عميقة تجسد استجابة لدى الانسان في حضارات مختلفة على مر العصور . من هنا لا ينظر الى تكرار الرمز الواحد على انه نسخ او سرقة ، لان الرمز في اساسه حقيقة نفسية قد يصح تعريفا للانسان يفرق بينه وبين الحيوان كما يرى الفيلسوف ارنست كاسيرر ، ومع ان هذا الافتراض لا ينفي تأثير الفنان الفرد بالفلسفات والاداب التي قد تشكل مصدر الهامه ، فانه يعطي تعبلا جوهريا داخليا يتخطى النسخ الذي يأخذ بالظواهر الخارجية ويتجاوز السرقة التي تنفي شرعية امتلاك الصور والرموز المشتركة .

يلاحظ الدارس لادب جبران خليل جبران ان فكرة الجنون تنكرر في نتاجه عبر مؤلفات عديدة . فقد ظهرت للمرة الاولى في اقصوصة بعنوان « يوحنا المجنون » من كتابه غرائس المروج الصادر عام ١٩٠٦ . وشغلته الفكرة في عدة مقالات نشرها في مجلة الفنون بين عامي ١٩١٦ و ١٩١٧ ، وضمها كتابه الاول باللغة الانكليزية الذي صدر عام ١٩١٨ بعنوان المجنون بعد ان ترجمها بنفسه (١٣) وظهرت فكرة الجنون كذلك في مقطع بعنوان « حفار القبور » الذي استهل به جبران كتابه الاخير

Ferdinand Alquié , The Philosophy of Surrealism , (٧)  
tr . Bernard Waldrop ( Ann Arbor , 1965 ) , P.7.

(٨) ايف دوبليس ، السريالية ، ترجمة بهيج شعبان ( بيروت ، ١٩٥٦ ) ، ص : ٤٠ .

Anna Balakian , Literary Origins of Surrealism (٩)  
( New York , 1965 ) . P . 17 .

Ibid . , PP . 122 - 123 . (١٠)

Maurice Nadeau , The History of Surrealism (New York , 1965 ) From int . by Roger Shattuck , P. 21

Balakian , P . 14 . (١٢)

Khalil Hawi , Khalil Gibran , His Background (١٣)  
Character and Works ( Beirut , 1972 ) , P . 179.

باللغة العربية ، العواصف ، الذي كتبت معظم مقاطعه بين عامي ١٩١٨ و ١٩١٩ ونشر عام ١٩٢٠ (١٤) من هنا يبدو ان فكرة الجنون راودت جبران طويلاً ، ولا بد انها تطورت عبر السنوات الاربع عشرة التي تفصل بين عام صدور غرائس المروج وعام صدور العواصف . فما هي الدلالات التي تحملها فكرة الجنون في ادب جبران ؟

بروي جبران في « يوحنا المجنون » قصة راع شاب يعيش في منطقة لبنان الشمالي قرب دير الشبع النبي ، يمضي ايامه في مناجاة الطبيعة وقراءة الاناجيل . ويصطر يوحنا في احد الايام ان يواجه رهبان الدير بمنف متهما اياهم بمخالفة تعاليم الدين الذي يمثلونه ، فلنمأ يطالبه الرهبان بدفع غرامة مالية ، لان البهائم التي يرعاها دخلت الاراضي الملحقة بالدير واكلت بعض زرعهم . ويتهم يوحنا بالجنون ويسجن . ويأتي والده ليشهد امام المحاكم بجنون ابنه :

طالما سمعته يهذي في وحدته يا سيدي ، ويتكلم عن اشياء غريبة لا حقيقة لها ، نكتم صهر الليالي مناجيا السكون بالفاظ مجهولة ، مناديا خيالات الظلمة باصوات مخيفة تقارن تمازيم المرافقين المتعوزين ؛ سل فتيتان الحي يا سيدي فقد جالسوه وصرخوا انجذاب عائلته الى عالم بعيد ، فكانوا يخاطبونه فلا يجيب ، وان تكلم جاءت اقواله ملتبسة لا علاقة لها باحاديثهم . سل امه فهي الدرى الناس بانسلاخ نفسه عن المدارك الحسية ، فقد شاهدته مرات نظرا الى الافق يعينين زجاجيتين جامدتين وسمعته متكلماً بشغف عن الاشجار والجداول والزهور والنجوم ، مثلما تتكلم الاطفال عن صفائر الامور ، سل رهبان الدير فقد خاسمهم بالاسر محتقرا تسكهم وتعبدهم ، كانوا بقداسة معيشتهم . وهو مجنون يا سيدي ... (١٥)

يعطي جبران في هذا المقطع تحديدا للدلالات التي يحملها الجنون كما رآه في هذه المرحلة . فهو يصف الثورة على التقاليد في الفكر والحياة اليومية ، الذي وقفه يوحنا ، سوغ للناس اتهامه بالجنون ، وقد لاحظ الدكتور خليل حاوي ذلك في دراسته لجبران فقال ان يوحنا اتهم بالجنون لانه انجيلي وروسوي . (١٦) فيوحنا كما يظهر في هذا المقطع هو انسان الطبيعة البدائي الذي تحدث عنه روسو ، والبدائي هو الانسان الطفلسل الذي ينهوج لاوعيه وبخسبوعيه ، لذلك فهو بعيد عن التسلسل المنطقي الفلسفي الذي تتصف به مرحلة النضج من حياة الانسان والحضارة ، وقريب من الرؤيا التي تعارض الممركات العقلية وتطال بالحدس ، فكان يوحنا شاعرا ولم يكن فيلسوفا . وهذه احدى الدلالات التي يحملها جنونه . وقد ذكرنا ان الجنون ارتبط بالشعر عند افلاطون ، لان الشعر هو الهام لا يدرك بالعقل الواعي بل بالحدس . ويوحنا هنا هو الشاعر الرومنطقي ، ابن الطبيعة الذي يحدث الاشجار والجداول والزهور والنجوم ، اذ انه الطفل الذي ما زال يفعل من حيث هو وحدة ، لانه لم يبلغ بعد مرحلة التفريق بين الانا والعالم الخارجي . ويوحنا هو الرومنطقي الشاعر على الكلاسيكية لاعلاها شان طبقة صغيرة يحتل فيها رجال الدين مركزا هاما . ويدعو مثل الرومنطقيين - الى اعلاء شان الفرد الذي يحق له ان يؤول النص الديني بنفسه ، ويدعو الى التخلص من طبقة الاكليروس التي تستغل الفقراء ماديا وتسيطر عليهم روحيا . وبذلك يجعل الجنون بالنسبة لجبران في هذه المرحلة ، دلالة اخرى - وهي رفض النظم التي تتحكم بالواقع ، والانجذاب الى عالم ما فوق الواقع حيث يخلق الانسان - بخياله - عالما مثاليا لا تتحكم به قوانين لا يرضى

(١٤) جبران خليل جبران ، المجموعة الكاملة ، مقدمة ميخائيل

نعيمه ( بيروت ، ١٩٤٩ - ٥٠ ) ، ج : ١ ، ص : ٣٦ - ٣٧ .

(١٥) م.ن. ، ص : ١٠٣ .

Gibran . P . 205 .

(١٦)

يعل محل الاله القليل .

عنها . من هنا كان خليل الكافر - في نورتته على رجال الدين والسياسة مجنوناً وان لم يسمه جبران بالمجنون .

يبدو ان فكرة المجنون ظلت تراود جبران - واعيا او لا واعيا - حتى ظهور المجنون عام ١٩١٨ ، والاله المجنون في « حفار القبور » من كتاب العواصف عام ١٩٢٠ . وقد تطورت فكرة المجنون عند جبران واكتسبت دلالات جديدة لم تظهر في « يوحنا المجنون » . وكان الرجل المجنون والاله المجنون تجسيدا للفكرة واحدة لان جبران خلقهما في فترة زمنية واحدة . فالرجل المجنون - كما يلاحظ حاوي - ليس سوى الاله المجنون بعد ان نقله جبران من وجوده الموحش في وادي الموت ، الى وجود مساد في الوحشة في قلب المجتمع والحضارة (١٧)

يلتقي الشاعر حفار القبور الذي يؤكد له ان البشر ليسوا سوى جثث مكدسة حول المنازل والمحاكم والمعابد . فالبيت هو من يقف مرتشا امام العاصفة ، اما الحي فيسير معها ولا يقف الا بوقوفها . وينكر حفار القبور - الذي يسمي نفسه الاله المجنون - ان يكون لغير الجن حقيقة ، ويدعو الى عبادة الذات : « انا رب نفسي » (١٨) ، و « في الليل اركع امام نفسي واعبدها » (١٩) . ويقول : « اما الحقيقة المجردة فهي أنك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها ولا تهوى غير اميالها ولا رجاء لك الا بخلودها . منذ البدء والانسان يعيد نفسه ولكنه يلقبها باسماء مختلفة باختلاف امياله وامانيه ، فتارة يدعوها الجبل وطورا المشتري واخرى الاله . » (٢٠)

يحمل مثل الاله المجنون في « حفار القبور » وجوه شبه كثيرة لصورة المجنون عند نيتشه . يدعو نيتشه في « مثل المجنون الذي يبحث عن الاله الميت » من كتابه الحكمة المبهجة الى عبادة الذات بعد ان قتل الانسان الله . ويحمل المجنون مشعلا مضاء في الصباح ويغبر الجواهر التي احتشدت حوله انه يبحث عن الله . ويقول انه لا يسمع سوى صوت معاول حفاري القبور الذين يدفنون الله . ويمجد المجنون فعل قتل الله ولكنه يعد البشر غير جديرين بعمل عظيم كهذا . ويقتحم المجنون كنائس عديدة صارخا : وما الكنائس سوى القبور التي دفن فيها الله ( ٢١ ) وليس زرادشت غير صورة اخرى للمجنون وان لم يسمه نيتشه مجنوناً .

لعل شخصية حفار القبور كانت من اعنف ما قدم جبران في ادبه من شخصيات ، وقد اقترب في هذه المقطوعة - كما لم يقترب في اية مقطوعة اخرى - من نيتشه . فاله جبران المجنون يحقر البشر جميعا ويعدهم امواتا يتحركون ، ومجنون نيتشه يرى انه هو الاله الذي جاء في زمن قبل زمانه وينظر باحتقار الى البشر ويقول ان العمل العظيم - اي قتل الله - ما زال في بدايته ، ولم تظهر نتائجه العظيمة بعد ، كالتبرق والرعد اللذين يحتاجان الى وقت للوصول الى انظار الناس واسماعهم بعد حدوثهما . فالعمل العظيم ما زال بعيدا عن البشر بعد ابعاد النجوم عنهم (٢٢) وجبران هنا - وربما للمرة الاولى - يكتشف المعنى النفسي للدين والعبادة حين يقول ان الانسان على مر العصور لم يعبد سوى ذاته فيلقبها القابا مختلفة ، وكانه هنا يقتل الله من حيث هو حقيقة خارجية ويخلق الذات الانسانية التي يجب عليها ان تتفوق كي تصل الى مستوى الله ، فيحقق بذلك انسان نيتشه المتفوق الذي

ibid . , P. 194 .

(١٧)

(١٨) المجموعة الكاملة ، ج : ٢ ، ص : ١٣ .

(١٩) م . ن . ج : ٢ ، ص : ١٤ .

(٢٠) م . ن . ج : ٢ ، ص : ١٢ .

Fredrick Nietzesche , The Complete work Joyful (٢١)  
wisdom , ed . Oscar Levy ( New work , 1964 )  
V. 10 , PP . 167 - 168 .

ibid , P . 168 .

(٢٢)

وتبرز فكرة المجنون في اكثر صورها جلاء عند جبران في كتابه المجنون . يتحدث المجنون في هذا الكتاب امثالا كما فعل المسيح وانبياء العهد القديم . يروي جبران في هذا الكتاب خمسة وثلاثين مثلا ، تقع في خمس وسبعين صفحة في ترجمة الارشمنديريت انطونيوس بشير الى العربية . وقد عد ميخائيل نعيمة كتاب المجنون نقطة تحول في ادب جبران حيث يقول : « ان كتاب المجنون الذي ظهر بالانكليزية منذ اكثر من عام هو في نظري بدء طور جديد في حياة جبران خليل جبران الكتابية بل هو الحد الفاصل بين جبران الامس وجبران اليوم . » (٢٣) ولكن نعيمة يبدو وكأنه يسخر من مجنون جبران في كتابه عن حياة جبران حين يقول ان جمعية الشعر الامريكية دعت جبران لالقاء بعض قصائده فالتقى مقطوعة « الليل والمجنون » ولكن الجمهور لافاه وقصيدته بتعجب بلغ حد السخرية (٢٤) ولعل هذه الرواية تحمل من سخرية نعيمة اكثر مما تحمل من سخرية الجمهور الاميركي . ويعتبر حاوي ان نقد نعيمة اللاذع لكتاب المجنون كان نتيجة نظرته الى هذا الكتاب بمعزل عن مؤلفات جبران اللاحقة . فلو درسه في علاقته مع ما جاء بعده من مؤلفات لاستطاع ان يرى ان جو الرفض المهيمن عليه هو خطوة لا غنى عنها باتجاه نظرة جديدة ايجابية اتخذها جبران من الحياة (٢٥)

ويبدو لي ان نعيمة في الفرجال لم يستطع ان يتفهم الجو الذي اضفاه جبران على حياة مجنونه واقواله حين قال : « اما كاتب المجنون فقد اتخذ من فكره تعبيرا لعاطفته فادرك ان من شاء ان يصلح ما فسد في الحياة وجب عليه ان يقبل الحياة كما هي ، وان ينصرف بعد ذلك الى تفتية ادائها واحدة واحدة . فجبران اليوم ليس بالناقم على البشر ولا على حياة البشر . بل هو محب للبشرية وحياتها ومن حبه لها ينسب افكارها الى بعض ما فيها من الضعف والوهم والشناعة . ومنسبه ليس طبلا ولا جرسا ولا مدفا ، بل مثل بسيط نقرؤه فنضحك ، ثم نغمس ثم ننتفضي اشمئززا من انفسنا ، ثم نجلس صامتين مفكرين بتقويم ما اعوج وبتر ما فسد فينا . » (٢٦) فجبران لا يقبل الحياة كما هي ، كما يظن نعيمة ، حتى يقيرها وليس محبا للبشر ، كما يتوهم ، بل هو في سخريته المريرة اللاذعة يسمي الى تحطيم الاشكال البشرية والحضارية جميعا التي يرفضها . فهو ليس مسيحا ودبعا بل هو نائر عنيف يدعو الى الهدم قبل اعادة البناء .

وقد لاحظت في زيادة ذلك واقره به جبران نفسه . فبعد ان ارسل جبران لي كتابيه المجنون والواكب وجهت مي اليه كتابا خاصا صادم للهجة - كما يصفه جميل جبر - استنكرت فيه استسلامه لنيتشه وطريقة كلامه على الشهوات منتهية الى لوم مرير عنه سؤاها : « اهو انت المجنون ؟ » فاجابها جبران : « المجنون ليس انا بكليتي ، والللة التي اردت بيانها بلسان شخصية ابتدعتها ليست كل ما لدي من الافكار والنوازع ، واللهجة التي وجدتها مناسبة ليول ذلك المجنون ليست باللهجة التي اتخذها عندما اجلس لمحادثة صديق احبه واحترمه . واذا كان لا بد من الوصول الى حقيقتي بواسطة ما كتبتة فما عسى يمنك من اتخاذ « فتى الغاب » في كتاب الواكب لهذه الغاية بدلا من المجنون ؟ ... ان نفسي يا مي القرب ، بما لا يقاس ، الى « فتى الغاب » ونفمة نايه منها الى « المجنون » وصراخه . وسوف يتحطق لديك بان « المجنون » لم يكن سوى حلقة من سلسلة طويلة مصنوعة

(٢٣) الفرجال ، ( بيروت ، ١٩٦٤ ) ، ص : ١٧٠ .

Gibran , P . 140 .

(٢٤)

ibid , P . 213 ,

(٢٥)

(٢٦) الفرجال ، ص : ١٧١ .

من معادج مختلفة . لا انكر ان « المجنون » كان حلقة خشنة مصنوعة من حديد . ولكن هذا لا يدل على ان السلسلة تكون كلها خشنة ومن حديده . « ( ٢٧ ) وقد تنبه خليل حاوي الى الموقف الثائر العنيف الذي يقفه المجنون وراى ان فكره ينصب في تيارين : اولهما تطعيم القيم الموروثة في الحضارة ، والثاني افناء الذات الصغرى وتحقيق الذات الكبرى وهي الله . ويقول حاوي ان هذين التيارين يكمل احدهما الآخر لانهما يهدفان الى تحرير الانسان من الاشكال الخارجية التي تقيدته ومن القيود الداخلية التي تستبد به . ( ٢٨ )

ما هو الجنون كما يراه جبران في هذه المرحلة ؟ وما هي الدلالات التي تربط بالجنون في كتاب المجنون ؟ يستهل جبران كتابه هذا بنشيد عنوانه « كيف صرت مجنوناً ؟ » يقول المجنون فيه انه نهى من نوم عميق فوجد ان افئته السبعة التي حاكها في حياته السبع على الارض قد سرقت فوقف عاريا للمرة الاولى امام الشمس التي قبلته ، فالتهب نفسه بعجها وبارك سارقي افئته : « هكذا صرت مجنوناً ، ولكنني قد وجدت بجنوني هذا الحرية والنجاة معا : حرية الانفراد ، والنجاة من ان يدرك الناس كياني ، لان الذين يدركون كيانا انما يستمعدون بعض ما فينا » ( ٢٩ ) ويخاطب المجنون الله من حيث هو سيد و المجنون عبد فلا يجيبه . ويخاطبه بعد الف سنة من حيث هو خالق و المجنون مخلوق فلا يجيبه . ويخاطبه بعد الف سنة اخرى من حيث هو اب قدوس و المجنون ابنه فلا يجيبه . وبعد الف سنة يصعد المجنون الى الجبل المقدس ويخاطب الله قائلا : « يا الهي الحكم العظيم يا كماله ومحجتي . انا امسك وانت فدي . انا عروق لك في ظلمات الارض وانت ازاهر لي في انوار السماوات ونحن ننمو معا امام وجه الشمس . فطف الله اذ ذاك علي وانحنى فوقى وهمس في اذني كلمات تنوب رقة وحلاوة ، وكما يطوي البحر جبولا منحدرنا اليه طواني الله في اعماقه . وعندما انحدرت الى الاودية والسهول كان الله هناك ايضا .. » ( ٣٠ )

يؤكد جبران في هذه الصفحات الاولى من كتاب المجنون وحدة الثالث - الذي اشرنا اليه - الجنون والحب والتصوف . فالجنون هنا هو اللاوعي عاريا من قوانين الذات ومن نظم المجتمع الانساني . و المجنون لا يبارك جنونه الا عندما تلتهب ذاته في حب الشمس المحرق فيكتشف ان السبيل الوحيدة الى الله هي التصوف حيث تمحي ذات الانسان الصغرى وتولد الذات الانسانية الكبرى وهي الله . ويؤكد جبران هذه الفكرة في مواضع كثيرة من كتابه المجنون . فيقول في مثل « الليل و المجنون » : « انا اخوان توأمان ايها الليل فانت تكشف مكونات اللانهاية وانا اكشف مكونات نفسي » . ( ٣١ ) ويقول في مثل الفلكي « وهو رجل اعمى : » ثم وضع يده على صدره وزاد قائلا : « انني ارصد هذه الشمس وهذه الافكار وهذه النجوم . » ( ٣٢ ) فتصبح ذات الانسان مرآة تختصر الوجود .

ولعل مثل « الحنين الاكظم » ( ٣٣ ) يصح شاهدها على وحدة ثالث الجنون والحب والتصوف ، الذي يشكل - في رأبي - المحور الذي يدور عليه فكر مجنون جبران . يقول المجنون في هذا المثل : « ها انا جالس بين اخي الجبل واختي البحر ، ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا

( ٢٧ ) جبران سيرته ، اديه ، فلسفته ورسمه ( بيروت ، ١٩٥٨ ) ،

ص : ١٢٠ .

Gibran , P . 196 .

( ٢٨ )

( ٢٩ ) المجنون امثاله واشعاره ، ترجمة الارشمنديت انطونيوس

بشير ( القاهرة ، ١٩٤٧ ) ، ص : ٦ .

( ٣٠ ) م . ن . ، ص : ٨ .

( ٣١ ) م . ن . ، ص : ٥٣ .

( ٣٢ ) م . ن . ، ص : ٦٢ .

( ٣٣ ) م . ن . ، ص : ٦٢ .

تربطنا محبة عميقة قوية غريبة ... نكهي متعاقبين عناقا ابديا ولكننا غير مستريحين . وهل من راحة لشوق مستعبد وشهوة لا تنفذ ؟ اين اله النار الملتهب فيدهمه مضجع اختي ؟ بل اين الهه الفيث الفيضة فتعهد براكين اخي ؟ وانا اشقى الاثنين . من اين لي المرأة التي تتسلط على قلبي ؟ هي سكينه الليل تردد اختي في احلامها اسم اله النار المجهول لتدفئتها ، وينادي اخي الالهه الفيث القصية لتبريد غلته . اما انا فمن ترى انادي في غفلي ؟ لست والله ادري ! لست والله ادري ! ها اناذا جالس بين اخي الجبل واختي البحر ، ونحن الثلاثة واحد في عزلتنا ، تربطنا محبة عميقة قوية غريبة . » ( ٣٤ )

يؤمن مجنون جبران بوحدة الوجود : اذ ان روح الله الحالة في صور الطبيعة تحول هذه الصور الى آلهة . ويتحد المجنون بالجبل والبحر بواسطة الحب ويصبحون - كالثالوث المسيحي - ثلاثة في واحد : لكل كيانه الخاص لكنه ذائب - بمعجزة تغطي التعليل المنطقي - في وحدة لا تنقسم . ويصبح المجنون الها يقبذ ذاته كما يعبد مجنون لئيشه ذاته .

ويؤمن مجنون جبران بالتقمص : اذ تعود الروح بعد الف سنة فتتجسد في انسان اخر ( ٣٥ ) ولعله يعود في ذلك الى افلاطون الذي قال ان الانسان لا يبلغ اعلى مراتب الجنون الالهي الا بالتقمص ، لانه لا يستطيع ان يحقق اسى ما يمكن ان تصل اليه ذاته من تفوق في حياة واحدة . لذا تعود روحه بعد الف سنة في جسد اخر ( ٣٦ ) فيصعد خطوة جديدة باتجاه افئته ذات مثال المثل بان يعشق الخير والعق والجمال ، الثالث الذي لا ينقسم .

يقول جبران في رسالة بعث بها الى ميخائيل نعيمة عام ١٩٢١ ان الجنون هو الخطوة الاولى نحو التجرد الرباني ، وهو يساعد على ادراك ما وراء نقاب العقل من اسرار ( ٣٧ ) فالجنون كما يراه جبران في هذه المرحلة يرتبط بالجنون عند السرياليين من حيث هو كشف لما في اللاوعي من اسرار . ويستبعد حاوي ان يكون جبران على الفة بالحركة السريالية عندما كتب المجنون لان الحركة وان ابتدأت مع رامبو فانها لم تنتشر الا بعد الحرب العالمية الاولى ( ٣٨ ) ولكن ذلك لا يمنع ان يكون جبران قد قرأ رامبو او غيره من الشعراء الذين مهدوا للحركة السريالية في فرنسا وتعرف الى مذهبهم في تشويش الحواس وتغويز اللاوعي والعودة الى الجنون - ولا سبيل الى تأكيد ذلك .

كذلك يرتبط الجنون عند جبران في هذه المرحلة بالتصوف الاسلامي : العربي والفارسي . اذ كان المجنون - كما ذكرنا - هو رمز للمتصوف الذي تلذذ ذاته الصغرى في الذات الالهية الكبرى ويتحد بالله اتحادا كلياً .

ويرتبط الجنون عنده بالتصوف الهندي . ف مجنون جبران هو رمز لكل انسان يسمى الى تحقيق ذاته الكبرى ، لذلك فهو بودا الذي لا يصل حالة النيرفانا الا اذا اصبح كل انسان ، بالفعل ، بودا . فيغدو بودا رمزاً لكل انسان اله . و المجنون بهذا هو البطل الوجودي الذي يختار للبشرية جمعا عندما يختار لنفسه .

يتضح مما تقدم ان فكرة الجنون تطورت في ادب جبران . فبينما لم يكن الجنون يعني سوى الثورة على النظم الاجتماعية الخارجية - كما بدأ في « يوحنا الجنون » - اصبح في « حفار القبور » و المجنون تجسيدا لنموذج اصلي كامن في اللاوعي الانساني الجماعي عبر عن نفسه في امكنة وازمنة مختلفة وهو ثالث الجنون والحب والتصوف .

بيروت

( ٢٤ ) م . ن . ، ص : ٦٢ - ٦٤ .

( ٣٥ ) م . ن . ، ص : ٨ .

Phaedrus , P . 86 .

( ٣٦ )

( ٣٧ ) جبران ، ص : ١٢٥ .

Gibran , P . 231 .

( ٣٨ )